

خاتمة

آت الاوان دعوة... ومنتج

— هيئة للتخطيط والتنسيق

— معهد للتراث

١ - هيئة عليا للتخطيط والتنسيق

أشرت في محاضرة مضت ، إلى ما لاح على أفقنا من بوادر اهتمام بخدمة تراثنا ، وذكرْتُ بعض الجهود المبذولة في هذا المجال ، من هيئات علمية وثقافية وبعض دور النشر .

ومثل هذه الجهود تحتاج بلا ريب إلى تنسيق ، أعتقد أنه لن يتاح لها بغير تشكيل هيئة عليا للتراث ، تمثل فيها كل المراكز والهيئات والمؤسسات الثقافية الطباعية ذات الاتصال بالتراث .

وطبيعة الموضوع تتجه إلى جامعة الدول العربية ، وتفرض أن تكون الهيئة المقترحة ، من بين مراكزها الثقافية . إذ أن التراث لا ينحصر قطراً دون آخر من أقطار الوطن العربي ، وإنما هو تراث أمتنا ، ينبغي أن تتعاون على حمايته وإحيائه وتوجيهه لخدمة الحياة .

وهذا الوضع لهيئة التراث في جامعة الدول العربية ، هو المظهر المعبر عن تقدير قيمة تراثنا وإدراك أبعاده المترامية ، بقدر ما هو سبيل إلى العمل الجاد المجدى لكي يأخذ تراثنا موقعه في معركة وجودنا المشترك ومصيرنا الواحد .

• • •

مثل هذه الهيئة المقترحة ، تستطيع أن تخطط لإحياء التراث وحمايته وخدمة الحياة به . بحيث تتكامل الجهود فلا تتكرر أو تضيق ، وتتآزر فلا تتبعثر وتنفرق ، وتتناسق فلا يأخذ كل منها طريقه بمعزل عن سواه :

لعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية ، تكون مهمته السعي الجاد لإحصاء تركتنا من ذخائر التراث ، وإعداد سجل جامع ، يتابع رصد كل ما في خزائن المخطوطات العربية بالعالم ، وعمل فبهجت علمي لهذه الذخائر ، يكون مرجعاً للعلماء

والهيئات والمؤسسات العاملة في الميدان ، تختار منه ما يجب نشره طبقاً لبرنامج واضح يتفقد على مر السنين .

والمجامع العلمية ، تكون مهمتها الإشراف على تحقيق ما ينشر من نصوص هذا التراث ، تختار لها الخبراء من المحققين والمراجعين . على أن ينسق العمل بينها فيختص كل مجمع منها بقسم معين من التراث ، كأن يتولى مجمع دمشق الإشراف على تحقيق النصوص اللغوية ، ومجمع بغداد الذخائر التاريخية ، ومجمع القاهرة العلمي مخطوطات تراثنا من العلوم ، ومجمع اللغة العربية تراث الآداب ، ويوزع تراث العلوم الإسلامية على الهيئات والجامعات والمؤسسات الإسلامية ، في أقطار المشرق والمغرب . .

ودور الكتب الكبرى في أقطار الوطن العربي . تكون مراكز للتحقيق ، في خدمة المحققين والمراجعين . تدبر لهم ما يحتاجون إليه من نسخ مصورة للمخطوطات التي يحققونها . وتمدهم بأصول المصادر والمراجع للنص المحقق . وتعد لهم قاعات خاصة مزودة بأجهزة الخدمة والتحقيق ، يتاح لهم أن يعملوا فيها دون إرهاقهم بإجراءات الاستعارة المكتبية كل يوم . أو يضمنهم السعي وراء نماذج الخط والورق والمداد ، ونسخ المخطوطات التي يحتمل وجودها في دور أخرى ولا يمكن استعارتها أو تصويرها إلا عن طريق هيئة رسمية .

كما تضع مراكز التحقيق بدور الكتب ، عدداً من شباب الفنيين فيها ، مع العلماء المحققين ، يدرّبونهم على مناهج التوثيق .

ومهمة الطبع والنشر ، تتولاها المؤسسات الثقافية الكبرى العاملة في الميدان ، كوزارات الثقافة والأوقاف في الكويت ومصر وسوريا ولبنان والعراق والمغرب ، ودور الطباعة والنشر ذات الخبرة والكفاية في هذا المجال ، كمؤسسة دار المعارف ، ومكتبات الحلبي بالقاهرة وعبيد بدمشق والمثنى ببغداد . . . على سبيل المثال لا الحصر . . .

وعلى هذا النحو يتمُّ لمَّ الجهود المبعثرة والتنسيق بينها لخدمة حياتنا بترائنا ،
وتتآزر الطاقات العلمية والمادية ، وفاء بحق الأمة في أن تستضيء بترائنا لتستكمل
وعى ذاتها وفهم تاريخها ، ومعرفة مواقع خطاها من ماضٍ إلى حاضر . .

• • •

وإذ كانت عملية التوثيق والتحقيق لمخطوطات التراث ، هي الدعامة الأساسية
للنشر ، تبدو الحاجة ماسة وجوهرية إلى « معهد عالٍ للتراث » يستحق أن ينفرد
بجديد خاص .

(٢)

معهد عال للتراث بين الواقع والمثال

منذ خمسة عشر عاماً ، في صيف عام ١٩٥٢ على التحديد . كنا نزور المستشرق
الدينمركي « أنلرسن » في بيته بمدينة كوبنهاجن ، حيث استقبلنا في قاعة كتبه التي
اتخذها مقاماً له ، بعد أن أعجزته الشيخوخة عن الذهاب إلى الجامعة .

وأخذني منظره المهيب . وهو عاكف على مخطوط عربي يدرسه بشغف
وصبر ، ويسألنا في بعض ما غمض عليه من ألفاظه وعباراته . رغم ما يبدو عليه
من وهن قواه الجسدية . وشق علينا أن يجهد شيخوخته بمثل هذا العمل المصني ،
فسألته في إشفاق وتأثر :

— أما آن لك أن تستريح من عبء المخطوطات ؟

وأجاب الشيخ من فوره :

— كلا يا ابنتي ، فما يزال تلاميذني في حاجة إليّ ، ولا أستطيع أن أتخلى عن
العبء فيما بقي لي من العمر قبل أن أطمئن إلى قدرتهم على احتماله ، لكي يظل
لوطني وجوده العلمي في ميدان الاستشراق .

ولغذت كلمته إلى قلبي وفكري ، ومن يومها وأنا مشغولة البال بهم التفكير
فيما سوف يقول إليه حال ما بقي لنا من تراثنا ، عندما تمضي القلة من العلماء
المتخصصين في علم التراث ومنهج توثيق النصوص وتحقيقها ، وهم في الغالب من أساتذة
الدراسات العربية والإسلامية موزعين على جامعاتنا في أقطار الوطن العربي ،
حيث لا تتاح لهم فرصة إعداد جيل يخلفهم ، نظراً لتقيدهم بالمقررات التي تلزمهم
لوائح الجامعات بتدريسها لطلاب الدرجات الجامعية الأولى ، وليس فيها مجال
لمثل هذا التخصص الدقيق ، ولا هي بطبيعتها قادرة على احتماله .

وكلهم من الكهول .

وسوف يصلون إلى سن التقاعد ، واحداً بعد الآخر ، دون أن يُخلّفوا من بعدهم من يتلقى الأمانة ويحمل العبء الشاق .

وكان المفروض أن يتجه عدد من طلاب الدراسات العربية والإسلامية العليا ، إلى ميدان تحقيق النصوص المخطوطة ، في رسائلهم التي يعدونها تحت إشراف هؤلاء الأساتذة ، لدرجتي الماجستير والدكتوراه ، حيث يتلقون أصول منهج التحقيق ويتدربون عليها في التطبيق العملي ، على نحو ما كان متبعاً في جيلنا ، حين كان أستاذنا « أمين الخولي » يفرض على طلاب الدكتوراه من قسم اللغة العربية بآداب القاهرة ، أن يقدم كل منهم مع دراسته ، نصاً يحقّقه من ذخائر تراثنا ، في مجال تخصصه . لكن طلاب الجيل بعدنا ، ما لبثوا أن صدوا عن هذا وأسقطوه من حسابهم . وهي ظاهرة تثير القلق لما يمكن أن تؤدي إليه من فراغ خطير لاحت بوادره منذ سنين .

وفي محاولة لي ، لأستبين موقف الطلاب من التخصص في تحقيق النصوص عن طريق مناقشة نحو مائتي طالب وطالبة بالدراسات العليا في أقسام اللغة العربية بالجامعات ، اتضح لي أن الكثرة الغالبة منهم اتجهوا إلى موضوعات تاريخ الأدب والنقد ، وقلة اتجهت إلى النحو واللغة . ولا سألتهم عن زهدهم في تحقيق مخطوطات التراث ، استخلصت من أجوبتهم أن ذلك يرجع إلى أسباب ثلاثة :

أولها : إشفاقهم من صعوبة هذا التخصص ومن طول الزمن الذي يستغرقه تحقيق مخطوط ودرسه .

الثاني : الجهل بقيمة هذا العمل وجدواه .

والثالث : الإشفاق من ضيق المجال الوظيفي لمن يتخصصون في علم التراث ، وهم يشهدون مأساة ضياعه فينا ، ويسمعون ما يضحج به الأفق من صيحات الاستنكار للاشتغال بهذا القديم البالي ، ويقرأون ما يُكُتب وينشر عن رجعية من يحاولون التنقيب في صناديق الدمي التي تلهي بها أسلافنا ، في طور الطفولة العقلية والسذاجة الفكرية .

وعذرتهم جميعاً . . .

والأيام تمضى ، وعلماء التراث يمشون معها ...

وكلما ودعنا واحداً منهم ، أحيل على التقاعد أو انتقل من دنيانا ، ازداد إحساسى بفداحة الخسارة فيه ، وخوفى على تراثنا فى المستقبل القريب أو البعيد ، ونحن لم نخطط لعملية إنقاذٍ تواجه هذا الفراغ وتبىء لتراثنا جيلاً بعد جيل من الخبراء المتخصصين .

* * *

حتى إذا بدا الاتجاه إلى تخطيط الدراسات الجامعية العليا ودعمها بأساتذة بحوث متفرغين لها . رجوت أن يكون الأوان قد آن لإنشاء « معهد عال للتراث »^(١) - على غرار معهد الآثار - يتيح لنا الانتفاع بخبرة علماء التراث إلى أقصى مدى مستطاع ، ويعبئ طاقاتهم لإعداد جيلٍ جديد من المتخصصين .

والمعهد المقترح ، لا يمكن أن يلحق بالمرحلة الجامعية الأولى قسماً من أقسام كليات الآداب أو دار العلوم أو كلية الدراسات العربية بالأزهر ، لأن الدراسة فى المعهد نوع من التخصص العالى الدقيق لا تسمح به طبيعة هذه المرحلة الأولى بعموميتها ومستوى طلابها ، فضلاً عن كونها تحصره فى المجال الدراسى للكلية التى يلحق بها وتوصده فى وجود من نرجو إعدادهم لتحقيق تراثنا فى الطب والطبيعة والفلك والرياضيات والملاحة والصيدلية والزراعة والقانون . وإنما يبدأ التخصص لمن أتموا دراستهم الجامعية فى هذه الكليات العلمية . إلى جانب من أتموها فى علوم العربية والإسلام .

ويفتح المعهد أبوابه للطلاب الوافدين من الجامعات والدور العلمية فى مختلف أقطار الوطن العربى والعالم الإسلامى .

وتكون مدة الدراسة فيه عامين ، يدرسون فى أولها : مجال التراث وأبعاده الموضوعية والزمانية والمكانية ، وتاريخ الكتابة وموادها ، وحركة التدوين عند العرب وما لابسها من ظروف دينية ومذهبية وقومية . وحركة الترجمة والتعريب

(١) نشرت الدعوة إلى هذا المعهد بالملحق الأدبى لأهرام الجمعة فى ١٣/١٢/١٩٦٣ ثم تابعت بيان منهجه المقترح فى الأعداد التالية .

تراث الشعوب القديمة ، ودور الكتب العربية في عصر الحضارة الإسلامية ،
ومعابر انتقال كنوز التراث إلى الغرب ، وحركة الاستشراق في مراحل تطوره ،
وميادين نشاطه ، ومراكزه وأعلامه ، وكتبه ومؤتمراته ومنشوراته من ذخائر تراثنا .
كما يدرسون فهارس المكتبة العربية من العصور الإسلامية الأولى إلى مطلع العصر
الحديث ، وفهارس المخطوطات في الشرق والغرب ، وكتب الطبقات ومعاجم أعلام
الأشخاص والبلدان ، والمعاجم اللغوية .

ثم يدرسون قواعد المنهج النقلي ، القديم والحديث ، وضوابط الرواية والإسناد
في بيئة علماء الحديث وعلماء اللغة والأدب .

وفي السنة الثانية يدرسون علم الخط العربي ، ثم علم توثيق المخطوطات ، وهو
علم بالغ الدقة والصعوبة ، يضع الضوابط للتحقق من أصالة المخطوط والتثبت من
صحة نسبه إلى مؤلفه ، عن طريق فحص إسناده ، وورقه ومداده وخطه ، ونسق
كتابه والتوقيعات التي قد يحملها لناسخه ، أو ممن قرأوا المخطوط أو تملكوه أو
وقفوه . ولا يغني عن هذا الفحص أن يحمل المخطوط توقيع مؤلفه وتاريخ كتابته
أو نسخه . لاحتمال أن يكون كل هذا منقولاً بنسخ متأخر أو مزوراً بتقليد .

ولتقريب الفكرة . أقول إن لوحة من رسم رافاييل أو مايكل أنجلو أو
رامبرانت ، لا يمكن أن يكتب فيها بتوقيع للرسم قد يكون مزيفاً بمهارة ، وإنما
يفحص الخبراء الخط والألوان والقماش وأساليب الرسم وطابعه وروحه ، قبل أن
يطمنئوا إلى أصالة الصورة وصحة نسبه ، وبهذا التوثيق ترهن قيمة اللوحة ، وتفترق
الأصيلة عن المقلدة .

والأمر كذلك بالنسبة إلى المخطوط ، لا قيمة له بغير التوثيق الذي يجب أن يسبق
كل عمل في مقارنة كل نسخه الخطية ، وترتيبها حسب أصلتها وطرق إسنادها ومستواها
من الأمانة والضبط ، والترجيح بينها في مواضع اختلافها طبقاً للأصول المقررة
لهذا الترجيح .

وينقسم الطلاب بعد هذه الدراسات المشتركة إلى شعب متخصصة ، تبعاً لنوع
الدراسة التي تلقوها من قبل . ويتلقى طلاب كل شعبة ، المنهج العلمي لخدمة

النصوص التي يتخصصون فيها : من تفسير ألفاظ النص وتحديد دلالاتها التي يعينها السياق من بين الدلالات المعجمية التي تتعدد ليلفظ الواحد ، ثم التعريف بأعلام النص وخدمة شواهدة ، من حيث تدخل كل هذه الجهود لخدمة النص ، في توثيقه والتحقق من صحة نسبه إلى مؤلفه وعصره ، فقد يكشف لفظ منه أو علم فيه لشخص أو بلد ، متأخر عن عصر المؤلف ، عن زيف المخطوط أو تعديل طارئ عليه .

ويعملون التطبيق النظري للمنهج ، في الفحص النقدي لبعض كتب التراث التي نشرت هنا أو في الخارج ، مما يدخل في مجال التخصص لكل شعبة ، كي يميز الطلاب ما نشر منها على الأصول المنهجية ، وما أعوزه التوثيق أو شابهته شوائب من خطأ أو تشويه أو قصور .

أما التطبيق العملي ، فيمارسونه في التدريب على مخطوطات لم تنشر ، يحققونها تحت إشراف أساتذتهم ، على أن يزود المعهد بوسائل هذا التحقيق ، من مصورات « ميكروفلم » وجهاز قراءتها ، وصور لنسخ المخطوطات ، ونماذج تاريخية لأنواع الورق ، والمخطوط التي صحت نسبتها إلى العصور المختلفة ، وما يمكن الاطمئنان إليه من معاجم لغوية وكتب طبقات ، يدخل فيها عصر المخطوط الذي يتدرب الطالب على تحقيقه .

• • •

وقد يكون من المجدي ، في الفترة الأولى لإنشاء المعهد ، أن يُعدّ الملتحقون به طلاب بعثات داخلية ، ويوفد المتفوقون منهم بعد إتمام الدراسة في المعهد ، في بعثات علمية أو على منح التبادل الثقافي ، إلى معاهد الاستشراق الكبرى في أوروبا مثل ليدن في هولاندا ، وليننجراد ، وطشقند وموسكو بالاتحاد السوفيتي ، وروما وصقلية بإيطاليا . . . يعودون بعدها أعضاء في هيئة التدريس بالمعهد .

أما بقية المتخرجين ، فيعينون في وظائف أمناء المخطوطات بدور الكتب والجامعات والمعاهد والهيئات التي تملك خزائن مخطوطات ، وكذلك الوظائف المختصة بالتراث في الهيئات والمؤسسات العلمية والثقافية .

وسوف يقتضى الأمر أن نجمع علماء التراث من شتى جامعاتنا ومعاهدنا ، ولئن يشق علينا أن نحفظ بمن يبلغون منهم من التعاقد الرسمي ، ليشغلوا في هذا المعهد أساتذةً موجهين ، ويفرغوا لإعداد بحوث تراثية على أعلى مستوى .

• • •

هذه هى فكرة المعهد كما تمثلتها ودعوت إليها من شهر ديسمبر سنة ١٩٦٣ ، ومضت سنوات حسبت فيها أن الدعوة ذهبت مع الريح ، كغيرها من دعوات . ثم ما كان أصدق اغتباطى ، حين أصدرت وزارة الثقافة بمصر ، قراراً وزارياً بإنشاء مركز للتراث ، مقره دار الكتب فى القاهرة .

وبدأ المركز فعلاً ، يستقبل من عام ١٩٦٧ ، طلاباً من حملة الشهادة الجامعية الأولى ، يدرسون طبقاً للاتحة وضعتها « مجلس المركز » الذين ندبوا للعمل فى المركز ، محاضرين وخبراء ومدربين .

ومع اغتباطى بإنشاء المركز ، ومشاركتى فى العمل فيه منذ بدأ ، أقول إنه بوضعه الحالى يبدو بعيداً عما تمثلت ورجوت . فطلابه من حملة ليسانس الآداب ، وليس فيهم من درسوا العلوم ليندربوا على تحقيق التراث العلمى للإسلام ، فى الطب أو الرياضة أو الطبيعة أو . . .

وأساتذته كذلك ، أكثرهم من المتخصصين فى علوم العربية والإسلام . وهم يشتغلون فيه ندباً ، وليس فيهم أى أستاذ متفرغ للعمل فى المركز .

وأعلم أن وزارة الثقافة تؤمن بجدوى المركز وتقتطع له من ميزانيتها بضعة آلاف جنيه فى العام ، لكن المركز لم يصلر به قرار جمهورى ، يأخذ به مكانه المعترف به بين المعاهد الفنية العالية ، التابعة لوزارة الثقافة ، ويدعم كيانه ، ويمنحه الاستقرار المادى والمعنوى ، ويفسح أمامه مجال الطموح إلى ما نرجوه له .

• • •

وأياً ما كان الوضع ، فإن مجرد قيام "مركز التراث" بادرة تقدير للحاجة إليه

وخطوة أولى نحو المثال المرجو . ومن الخير أن يظل قائماً ، مهما تكن ظروفه وأوضاعه . إلى أن تستجاب الدعوة إلى تشكيل هيئة عليا للتراث . تتولى النظر في هذا المركز في تخطيطها لأمر التراث كله . وتدبر لتطويره حتى يكون لنا منه المعهد الذي نرجوه لثرائنا .

ولا شك في أن انتماء معهد التراث إلى جامعة الدول العربية ، يوسع من أفقه بحكم امتداد عملها ، على مستوى الوطن العربي كله .

وبعد فقد يبدو أننى أشق بهذا العبء على أمتى العربية فى معركةها المريرة
مع أعداء البشر ، وأولياءهم من ورثة الاستعمار لصوص الحرية .
لكنى لا أرتاب فى أن إدراكنا لأبعاد هذه المعركة ، كفىل بأن يرسخ وعينا
لقيمة تراثنا ، ويحدد له موقعه فى ميدان الجهاد .

والله المستعان .

عائشة عبد الرحمن